Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi

كمال اليازجي

ابو العلاء

آراؤه في لزوميّاته

لجنة التأليف المدرسي

حقوق الطبـــع محفوظة

الطبعة الاولى – بيروت ١٩٦٤

مقدمة

لئن صح ان ما كتب عن ابي العلاء من الابحاث حتى الآن يعـــدُّ بالمئات ، فانه لصحيح ايضاً ان هذه الابحاث لم تستنفده. ولم يكن ذلك لتقصير من الباحثين في الاستقصاء ، ولا لغفلة منهم عن اغراض ابي العلاء ، بل لان ادب هـــذا الشاعر بعيد الاغوار ، واسع الآفاق ؛ ولأنه قـــد آثر في التعبير عن آرائه الاجمال والتلميح ، على التفصيل والتصريح .

والبحث الذي نحن بصدده واحد من هذه المئات من الابحاث ، لكنه ربما فارقها في انه يستشف آراء ابي العلاء من خلال شعره الفلسفي ، وفي انه لا يكتفي بظاهر الدلالات ، ولا يتحمّل بعيد المعاني، بل يتطلّبها بشيء من الاجتهاد، وبجانب من اليسر ؛ وذلك خشية ان يضيع على القارىء بعض اهداف الشاعر ، او يحمل على الشاعر ما لم يخطر له في بال . لذلك كله آثرنا ، في ما اشكل من معاني الشاعر ، واستغلق من اغراضه ، ان نعتمد ما كان اقرب مأخذاً وايسر محملاً .

ولما كان ابو العلاء شاعراً نسيج وحده ، وكان قمة شامخة مستقلة من قمم الادب العربي ، فقد عمدت الهيئات الجامعية الى عقد حلقات دراسية خاصة حول ادبه ؛ ولما كنا وما نزال نعاني دراسته وتدريسه في حلقات الاختصاص ، رأينا ان نصدر هذا البحث في كتاب مستقل يجتزىء به مريدو ابي العلاء عن اقتناء المؤلفات الجامعة نظير كتابنا « اعلام الفلسفة العربية » .

وليس المقصود من عرض هذه الصورة لعالم ابي العلاء ان نؤرخ لعصره ، بل ان ننظر الى مجتمعه بالمنظار الاسود الذي رآه هو بـه ، فنستجلي بذلك مزاج الشاعر ، ونلمّ بطابعه الفكري الخاص. وجلّ ما نرجو ان يكون هذا الموجز مما يقرّب على القارىء اغوار ابي العلاء السحيقة ، ويدني اليه آفاقه البعيدة .

كال اليازجي

أبو العلاء المعرّي

(٩٧٣ – ١٠٥٧ م)

الرجل والعصر

معالم العصر .

صورة العصر . – عصر ابي العلاء هو صدر النصف الثاني من العهد العباسي؛ وهو عصر كان ابرز مظاهره تجزؤ الخلافة العباسية الى دويلات ، حكمها امراء لم يدينوا للخليفة العباسي بغير الطاعة الدينية ؛ بل منهم من خلع حتى هذه الطاعة واعلن خلافة مستقلة ، نظير ما فعل الفاطميون في مصر . وقد كان هذا التجزؤ نتيجة حتمية لضعف السلطة المركزية في الخلافة ، وطمع الولاة بالحكم الذاتي ؛ فاذا الخلافـة العباسية دويلات ذات استقلال اداري ومالي وعسكري ، يحكمها الامير المغتصب بالقوة والقهر .

على ان الطمع لم يقف بهؤلاء الامراء عند الاستقلال باماراتهم ، بل امتد الى ما يتاخمها من مناطق الامارات المجاورة . فنشبت لذلك المنازعات المريرة بـين الامراء المغتصبين ، وشنّ بعضهم عـلى بعض غارات متواصلة كان النصر فيها سجالاً ، وتقلص سلطان الخلافة حتى اقتصر على بلاد ما بين النهرين ، ومنطقة خليج فارس ، تتوسطها بغداد عاصمة العباسيين . ولقد كان هذا سبباً في تصدّع كيان الدولة ؛ فتضعضعت شؤون الصناعة ، وارتبكت خطوط التجارة ،

واضطرب حبل الامن ، وغدت مناطق الزراعة عرضة للغزو والنهب ، تُغير عليها قبائل البدو المجاورة آناً ، وتروّعها عصابات اللصوص والشذاذ آناً آخر . وقد استتبع هذا الوضع قيام فروق واسعة بين غني وفقير ، وقويّ وضعيف ، وعالم وجاهل ؛ فكان من ثَمَّ ذلك الفساد الذي دبَّ في اخلاق الناس ، وسمّم الصلّات الاجتماعية التي تقوم بينهم .

والحقُّ ان هذا التجزؤ السياسي الذي فتح باب الشرور ، كان في الوقت نفسه ، عاملاً هامًّا من عوامل النهضة الفكرية والادبية ، اذ تعددت مراكز الفكر بتعدد عواصم السياسة ، واشتدت المنافسة بين الامراء في تنشيطها ، وتسابقوا الى رعاية العلماء والادباء بالبذل السخي والاكرام الفائق . فاتسع بذلك مجال التحصيل ، وتضاعفت الهمة في البحث والانتاج ، وارتفعت عالياً مكانة العلماء والادباء ، ودرَّت عليهم اخلاف الرزق بما يستحقون .

احاسيس العصر . — على ان الكلام في عصر ابي العلاء شيء ، والكلام في العصر كما تحسسه هو شيء آخر . فالصورة التي ارتسمت في مخيلته ، وغذّت افكاره ، ووجهت آراءه انما هي وليدة احاسيسه ، اكثر مما هي وليدة الواقع التاريخي . فلئن وقع المؤرخ على كثير من مظاهر الفساد في السياسة ، ودلائل الضيق في الاقتصاد ، وظواهر التفسخ في المجتمع ، وامارات الانحطاط في الاخلاق والآداب العامة ؛ فان شاعرنا — في ما يبدو — لم يكن يتحسس من احوال العصر الا هذه الظواهر المشؤومة . ولئن كانت احوال العصر العامة في اتجاه محقق من سيءٍ الى اسوأ ، فانه قد ايقن انها قد بلغت من السوء الحد الاقصى .

ولما كان الغرض البعيد الذي نمهد له انما هو فهم ادب ابي العلاء ، كان لزاماً علينا ان نرى الحياة كما رآها هو ، وان ننظر اليها بمنظاره هو ، لا بعين المؤرخ المحقق فحسب ، فيتضح لنا — من ثمَّ — ان ضعف الخلفاء ، وتجزؤ الامبراطورية الاسلامية الى خلافات متنابذة ، ودويلات متنازعة ، قد حوّل الوضع السياسي الى جحيم مستعر . واذ تمزقت اوصال الامبراطورية على هذا النحو ، وفقد الامن ، ارتبكت سبل التجارة ، وشلَّ نشاط الصناعة ، ونضب معين الزراعة ؛ واذ اشتدت الضائقة ، وشاع العدوان ، واستفحلت الفوضى ؛ لجأ الناس الى

الخيانة والخداع ، واحتالوا على المعاش بشتى الاساليب : حلالها وحرامها ، سواء في ذلك اهل الدنيا وكثيرون من ارباب الدين . وغدت بذلك الحياة جحيماً يستعر بالاطماع ويتلظى بالشهوات ؛ وصار سبيل الخلاص الاوحد — في رأيه — الانقراض والعدم .

فأبو العلاء ، والحالة هذه ، لم يرَ في استبحار العمران ، وضخامة الثروات ، وارتفاع مستوى العيش ، الا البطر والاستغلال وشهوة المادة ؛ ولا استشفَّ من رواج اسواق الادب ، واتساع حقول العلم ، وتنوع ثمار الفكر ، الا الاستجداء والادعاء والنفاق . وكان هذا العصر ايضاً من اروع العصور ادباً ، واخصبها انتاجاً ، وانشطها تفكيراً ؛ ويكفي دليلاً ان يكون المعرّي نفسه ثمرة من ثماره اليانعة .

سيرة الرجل .

احداث حياته . — ولد المعرّي في بيت علم وقضاء في معرة النعمان . ولم يكن الجُدري ، الذي أصابه في طفولته ، وذهب ببصره وهو دون العاشرة ، ليمنعه من طلب العلم ، فأخذه بالسمع عن والده اولاً . ثم وفد على حلب ، واستكمل تحصيله على علمائها الافذاذ . ولم يقنع بالعلوم التي اشتهر بها اعلام بيئته من لغة وشريعة ، بل تاقت نفسه الى التعرف بعلوم الاوساط الاخرى : من دينيات وعقليات . فقصد الى انطاكية اولاً ، وفيها كان اول عهده بالتعليم المسيحي والفكر اليوناني . وقام بعد حين برحلة الى طرابلس مارّاً في اللاذقية ، وفي اللاذقية اتصل ببعض الرهبان واستزاد منهم ، بالمحاورة والمناقشة ، علماً باللاهوت المسيحي . وكان في طرابلس مكتبات زاهرة ، فمكث فيها زمناً يُقرأ عليه بعض ما فيها ، ويرتاد المجالس فيصغي ويناقش . وكأن ما فقده من حاسة البصر قد ضاعف من قوة ذاكرته ، فكان يعي ويحفظ كل ما يُتلى على سمعه ، ويجري في حضوره .

وورد عليه في هذه الاثناء نعي والده ، فقطع عليه هذه الفترة السعيدة من حياته ، اذ اضطر للعودة الى المعرة على الاثر . وفي المعرة سار سيرة العلماء ،

فجلس يعلم ويشرح ، ويجادل ويناقش ، وينظم الشعر ويصوغ الرسائل ، حتى ذاع له صيت اللغوي المدقق ، والاديب الناقد ، والشاعر الفذ . وكانت اكثر عنايته في شعر المتنبي ، يشرحه لطلابه معجباً به ، فنشأ له مـن انصار المتنبي وخصومه ، انصار وخصوم اشداء . على ان الملل لم يلبث ان ران على نفسه ، فتاقت الى السفر . وكان غرضه هـــذه المرة بغداد عاصمة العواصم . فشد اليها الرحل في مطلع القرن الحادي عشر . وعرف علماء بغداد بقدومه ، وكانت شهرته قد ذاعت عندهم ، فاستقبلوه استقبالاً حافلاً انساه ما عاناه في سفره من متاعب . وأقام أمداً يحضر مجالسهم ويساهم في ابحاثهم ومناقشاتهم . لكن صلاته بعلماء بغداد لم تلبث ان ساءت ، لما كان من تعصبهم على المتنبي وانتصاره له ، فغدا مقامه بينهم ثقيلاً . وكان يفكر بالعودة الى المعرة ، عندما بلغه مرض والدته ، فحزم امره على الرحيل ، وعاد من بغداد بمكاسب فكرية جناها مما عرفه عن اخوان الصفاء ، وعن مذاهب الهنود وفلسفتهم الصوفية . واقام بقية حياته في المعرة ، يقتصر في طعامه على الحبوب والخضار ، ويعتزل الناس في ما عـــدا الجلوس للتدريس ، ومراسلة كبار الادباء . وفي هذه الفترة نظم شعره الفلسفي الذي يضمه ديوان **لزوم ما لا يلزم** . ولقد عرض في هـــذا الديوان الكثير من افكاره الدينية والفلسفية الجريئة ، فكان ذلك سبباً في ازدياد المعجبين به من ناحية ، والناقمين عليه من ناحية أخرى . وقضى نحبه في مطلع النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، بين شامت به ومترحّم عليه .

الشخصية والبيئة . – لم يتوصل علماء النفس بعد ، الى اكتشاف ناموس يقرر مدى التفاعل ونوعه بين مؤثرات الحياة من جهة ، والمزاج الخلقي واللون الفكري من جهة ثانية . فالقول بأن الانسان وليد البيئة او التربية قول سطحي ، وحكم مائع جارف ، ان هو صدق في بعض الاتجاهات العامة ، فقد لا يصدق في التفاصيل والدقائق . ذلك أن النفس الانسانية اعتبار شديد الابهام ، غامض الماهية ، والناس – الى ذلك – متفاوتون في فطرهم . ولما كانت احوال الحياة واحداثها متباينة باعتبار دواعيها وظروفها ، كان تأثيرها على النفوس مختلفاً ، وربما جاء متعارضاً . واذا كان ذلك كذلك ، فالنفسية الناجمة عن هذا التفاعل هي من التعقيد بحيث تتحدى كل محاولة لاخضاعها الى قاعدة جامعة مانعة .

وبيّنٌ انه لو كان الانسان وليد البيئة فحسب ، لما اختلفت امزجة الناس في الاوضاع المتشابهة ، ولمـــا تباين رد الفعل على اثر الحادث الواحد ، ولكان باستطاعتنا – بالتالي – ان نخلق الفرد الذي نريد ، ونكوّن الجيل الذي نشتهي ، واين نحن من ذلك ؟ وليس معنى هذا ان الحياة تجري على غير نظام ، بل المقصود ان احداً لم يهتدِ بعدُ الى ناموس شامل يوضح سياق هذا التفاعل ، ويقرر نتائجه على نحو حتمي .

واذاً ، فماذا نقول في ابي العلاء ؟ هل كانت شخصيته وليدة بيئته الفاسدة المضطربة ؟ ام كانت متخلفة عما اصابه من كوارث ؟ ام هي عصارة مطالعاته الكثيرة وتأملاته العميقة ؟ لم تتحدر شخصية ابي العلاء عن واحد او اكثر من هذه المؤثرات ، ولم تـُنسجْ من خيوطها مجتمعة ؛ لكنها تأثرت بها قليلاً او كثيراً ، ايجابيًّا آناً وسلبيًّا آناً آخر ، على نحوٍ غامض تابع لمزاج النفس الغريب . فاذا نحن عدنا الى حياته ، نستعرض بتفصيل بعض احداثها الهامة ، فليس مطمعنا ان نحلل شخصيته تحليلاً يردها الى عناصرها ، ويرجعها الى الاصول التي كوّنتها ؛ بل من اجل ان نستأنس بأمور قد تجلو بعض مواطن الغموض ، وتعلل شيئاً من غريب التصرفات . والذي نود ان نقف عنده من حوادث حياته امور ثلاثة : الكوارث التي نزلت به ، والتعديات التي وقعت عليه ، والعلوم التي ألمّ بها .

١ . **المؤثرات الطارئة** : اجمع الذين عرفوا ابا العلاء على انه كان عصبي المزاج ، مرهف الشعور ؛ شديد الرأفة بأهل الفاقة ، عظيم الشفقة على الضعفاء والتعساء . وقد زاد في حساسيته ما حفل به عصره من ضروب التعاسة ووجوه العدوان ، وما وقع له من دواعي الحرمان والنقمة والظلم .

واول ما عانى ابو العلاء فـَقـْدُ البصر ، فتخلف عنه شعور مرير بالحرمان ، وعثرة في سبيل طموحه ، وعقبـــة دون امكاناته العلمية . لكن العمى لم يقعد بهمته ، بل واصل الجهاد حتى بلغ الغاية . فجاب عواصم العلم ، واتصل بأعلام الفكر ، ونفذ الى كنوز المكتبات .

واصابته النكبة الثانية في طريقه الى بغداد ، وهو في نحو الخامسة والثلاثين من عمره . اذ سلك اليها طريق وادي الفرات ، وكان خاله ابو طاهر قد أعدّ له